المبحث الثانى

في حقيقة المعجزة عند ابن رشـد

مفهوم المعجزة عند ابن رشـد

شـروط المعجزة عند ابن رشد

المعجز الحسي والمعجز العقلي عند ابن رشد

حقيقة المعجزة عند ابن رشد

أولاً : مفهوم المعجزة عند ابن رشد :

- اهتم ابن رشد ببيان مفهوم المعجزة وحقيقتها وحكم الاعتقاد بها والفرق بينها وبين باقى الخوارق وذلك فى المؤلفات التى خصصها للرد على أراء الفقهاء وأصحاب المذاهب وفى مقدمتهم الأشعرية والغزالى مثل : الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، تهافت التهافت ، حيث أكد أن المعجزة هى الآية الواضحة بذاتها والدالة على القدرة والإرادة والحكمة الإلهية وليست هى الخارقة التى تخرج أو تخرق قوانين العادة والطبيعة والحتمية . ومثالها القرآن الكريم بوصفه الآية المعجزة الصادقة والمقنعة بذاتها والتى وجب على العقل إدراكها والتصديق بها . فالمعجزة عند ابن رشد : الآية المقنعة الدالة على قدرة الله ، وعلى صدق الرسول ورسالته .

★ **ويدلل ابن رشد على صدق رؤيته هذه بأدلة منها :**

١ - إن وضع المعجزة فى إطار الواجب العقلى أفضل من وضعها فى إطار الممكن ، بمعنى إمكان خرق العادة وقوانين الطبيعة ، وإذا كانت المعجزة ممكنة من حيث الحدوث والإدراك ، فإن هذا الإمكان مرده أن قدرة الله على عمل يعجز عنه الإنسان أمر لا ينكره مؤمن بالله ، ولا ينكره العقل كذلك . وعلى ذلك فالمعجزة أمر يجيزه الشرع ويقره العقل ، وإرادة الخالق لا يعجزها أمر من الأمور .

٢ - إن الإيمان بالله والرسل واجب قبل الإيمان والتصديق بالمعجزات بوصفها خوارق ، مع ضرورة فهم أن المعجزات ليست كلها خوارق وليست كلها حسية مشاهدة . ودليله أن الإسلام لم تكن من حجيته المعجزات ، بل كانت معجزته آيات الكتاب المحكمة فى التنظيم والترتيب والأسلوب والبلاغة والمعرفة . ولو صدّق الناس بالمعجزات الحسية وحدها لما جاء القرآن على هذه الصفة من

الحكمة والإقناع وبدليل قوله تعالى : " وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون " (١) .

٣ – إن المعجزة هى الشريعة نفسها التى (صرح) بها واضع الملة وصدع بها النبى ﷺ . فالشريعة هى الأصل الأول الدال على حقيقة المعجزة . من أجل ذلك فالمعجزة يجب أن تتميز عن باقى الأمور الخارقة للعادة كالسحر والكرامات أو معجزات الحس التى جاءت على أيدى الأنبياء والرسل كقلب العصا حية أو انفلاق البحر.

فهذا التميز للمعجزة كشريعة ورسالة دليل ابن رشد على أن المعجزة ليست هى الخارقة التى تخرق قوانين الكون المنظمة له ، ويدل فى نفس الوقت على أن المعجزة هى الآية والدليل على صدق الأنبياء والرسل ، ومن ثم فالمعجزة يجب أن تكون هى الرسالة التى يأتى بها الرسل لإثبات نبوتهم واثبات واحدية الإله وقدرته ، ولأن الدليل الوحيد والأكيد الذى يثبت صدق رسالة من الرسالات هى الشرائع نفسها التى تتضمنها تلك الرسالات والحقائق التى تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم . (٢)

ولتأكيد ذلك أوجب ابن رشد إرتباط المعجزة بالنبوة والرسالة وصدقها وسلامة جوهرها ، ولذا فالمعجزات كخوارق للعادة لا تقع فى دائرة الإمكان بل تقع فى المرتبة الثانية فى الدلالة على صدق النبوة لأن الدلالة الأولى بالطبع هى الرسالة أو الشريعة التى يأتى بها الرسول وليس المعجزة الحسية المشاهدة ، بدليل أن النبى ﷺ لم تكن من حجيّته الخوارق بل دعوته وقرآنه. (٣)

٤ – إن المعجزة آية مقنعة وحقيقتها فى مسايرتها لأحكام العقل والدين وأحكام الكون وقوانينه . ولأن المعجزة أية ظاهرة وصادقة فهى لا تحتاج إلى دليل أو برهان أو هى فى نفسها الدليل والبرهان على صدق الرسل .

---

(١) الإسراء : ٥٩ .

(٢) عباس محمود العقاد : ابن رشد . ص ٦٦-٦٧ .

(٣) عباس محمود العقاد : ابن رشد . ص ٦٦-٦٧ .

والمعجزة بهذا الشكل خاضعة لإدراكات العقل والتصديق بها واجب ، وهى لا تخرج بحال عن نظام الكون الإلهى فى دقته وحكمته وقوانينه وحتميته . وبالتالى فالمعجزة ليست خارقة لقوانين العقل والعليّة كما ذهب الغزالى والأشعرية وفقهاء الكلام .

ودليل ذلك عند ابن رشد أن القرآن هو معجزة الإسلام المتميزة والمختلفة عن باقى المعجزات وخوارق العادات ، وأن القرآن كرسالة ومعجزة لا يتعارض مع قوانين العقل والعليّة لتوافقه مع المنطق والبرهان ، ويثبت ذلك ويؤكده أن وسيلة العارف إلى الإيمان يصدق النبى ﷺ هو معرفة الحق فى دعوته وليست هى رؤية الخوارق ، فإذا وقعت المعجزة صدق المشاهد لها بأنها عمل لا يقدر عليه غير الإله ، فلا بد إذن من الإيمان بالله والتصديق بالرسل قبل الإيمان والتصديق بالخوارق والمعجزات .

٥ - إن المعجزة يجب أن تكون لحكمة مفهومه لدى الخواص الذين يستطيعون التمييز بين الخارق الذى من نفس وضع الشرائع والخارق الذى ليس من نفس وضعها ، أى أن حقيقة المعجزة وأهميتها يتطلب التمييز بين المعجزات التى هى خوارق للعادات وبين الرسالة كمعجزة ، كما يتطلب التمييز بين ما يدركه الخواص وبين ما يمكن أن يذاع للعوام .

ولقد حاول ابن رشد من خلال هذه الأدلة بيان مدى تميز المفهوم الذى يقدمه للمعجزة وحقيقتها عن تلك المفاهيم الشائعة التى قدمها المفسرون والفقهاء وعلماء الكلام وحتى الفلاسفة . ورفض ابن رشد أن تكون المعجزات خوارق على اعتبار أن هناك فروقاً واضحة بين المعجزة والخارقة كما هو الحال بين المعجز الحسى والمعجز العقلى ، وبين المعجزة وغيرها من الخوارق التى يقدمها أصحاب الحيل والتخييلات من السحرة أو تلك التى تأتى معونة للأولياء والصالحين وكراماتهم .

وفى هذا الإطار كان رفض ابن رشد للمفهوم العام للمعجزة بوصفها الأمر الذى يظهر بخلاف العادة فى دار التكليف لإظهار صدق ذى نبوة من الأنبياء أو ذى كرامة من الأولياء ، لأنه مفهوم لا يميز بين معجزة وأخرى أو نوع وآخر ولا

يراعى حكمة الله وغاية الوجود والخلق وانتظام الكون العام وفق قوانين العلية والضرورة . (١)

فالمعجزة فى مفهوم ابن رشد ليست خارقة لقوانين العقل والعليّة وإلا تعارضت مع الحكمة والدقة التى تحكم الكون وتنظمه وهى فى حقيقتها ليست خارجة على نظام العلة والمعلول .

وحقيقة المعجزة عند ابن رشد لا تظهر إلا على أساس التصديق العقلى بوقوع المعجزات وارتباطها بالنبوة والتمييز بين المعجزة وغيرها من الخوارق ، ثم تحديد مصادر العلم بالمعجزات والتى على أساسها يتم التمييز بين المعجزات والخوارق .

وهو يوضح ذلك فى كتابه " الكشف عن مناهج الأدلة " حين يقول : إن المعجزة علامة خارجية قد تؤكد وجود الرسالة وأن صاحب المعجزة نبى مرسل غير أنها ليست دليلاً على صحة رسالته ، وعامة الناس ترى فى المعجزة دليلاً إلا أن الدليل الوحيد الذى يثبت صدق رسالة من الرسالات هى الشرائع نفسها التى تتضمنها تلك الرسالات والحقائق التى تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم ، والمثال على ذلك رجلين كل منهما يدعى الطب أحدهما يبرهن على صدق دعواه بأنه يبرئ المرض والثانى يثبت دعواه بأنه يسير على الماء ، فالسير على الماء أمر خارق ومعجز ولكنه ليس دليلاً على أن صاحبه طبيب . (٢)

وهذا يعنى أن الخارقة التى يطلق عليها البعض اسم المعجزة ليست وحدها دليل الصدق ، ومن ثم فإن الشريعة أو الرسالة نفسها هى الأصل الأول الدال على حقيقة المعجزة وليس مجرد الرؤية العيانية لخارقة من الخوارق ولذا قالوا بوجوب التميز بين المعجزات التى هى من قبيل الخوارق وبين المعجزات التى يؤيدها الشرع ويدركها العقل ، لانها معجزات تقوم على أساس التصديق العقلى من جهة والتصديق بالنبوات من جهة أخرى ، والمثال عند ابن رشد على ذلك رؤيا يوسف عليه السلام فى السنين العجاف والوصول للحكم ، وكذلك إعلام النبى ﷺ عن الأشياء

---

(١) ابن رشد : فصل المقال : ص ٣٢-٤٥ ، د. ماجد فخرى : ابن رشد ص ١٠٨ .

(٢) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٢١٦ ، وفى النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد للدكتور/العراقى ص ٣٥٣-٣٥٤ ، وفى ابن رشد للعقاد ص ٦٧-٦٩ .

المستقبلية وحدوثها بالفعل فتلك من دلائل النبوة الواجبة التصديق كما يقول ابن رشد .

وهذا التصديق يوضحه ابن رشد فى معرض حديثه عن مصادر العلم بالمعجزات والتى على أساسها يتم التميز بين المعجزات والإيمان بها فيقول فى كتابه مناهج الأدلة أيضاً : أما من حيث مصدر العلم بهذا الأصل الأول فهو إنذار الأنبياء بوجود الأشياء التى لم توجد بعد فتخرج إلى الوجود على الصفة التى أنذروا بها وفى الوقت الذى أنذروا وبما يأمرون من أفعال وينبهون عليه من العلوم التى ليست تشبه المعارف والأعمال التى تدرك فتعلم ، فالإنسان قد اختص بالمعرفة والإدراك فى القوة العقلية الفكرية التى بها يدرك حدوث الأمور النافعة والضارة فى المستقبل يستعد للشئ ويتأهب له ، ويبشر بوفود الخير ويعلم وقوعه إذا حدث بهذه القوة أى الآلة الشرعية والإدراك الروحانى ، ولذلك قيل إنه جرى كذا أو كذا من النبوة ومثاله رؤيا يوسف عليه السلام والسنين العجاف .

وهذا الأصل الاول - كما يقول ابن رشد - لا يفهم تماماً إلا بالتفرقة بين الخارق الذى من نفس وضع الشرائع والخارق الذى ليس من نفس وضعها ، وذلك أن الخارق للمعتاد (أى الخارق للعادة) إذا كان خارقاً فى المعرفة بوضع الشرائع ، دل على أن وضعها لم يكن بتعلم وإنما كان بوحى من الله وهو المسمى نبوة ، وأما الخارق الذى ليس من نفس الشرائع مثل انفلاق البحر وغير ذلك فلا يدل دلالة ضرورية على هذه الصفة المسماة نبوة وإنما تدل إذا اقتربت (أشارت) إلى الدلالة الأولى ، وأما إذا أتت مفردة (أى غير مرتبطة بالدعوة والرسالة) فلا تدل على ذلك .

فالأولياء مثلاً لا تدل أفعالهم على معجزات لأنها تأتى مفردات ، أما الخارق الذى يدل دلالة قطعية فليس موجوداً لهم لأنهم ليسوا بأنبياء أو أصحاب رسالات ليكون لهم معجزات ، وعلى هذا النحو يجب أن يفهم الأمر فى دلالة المعجز على النبوة ، وأما المعجز فى غير ذلك من الأفعال فشاهد لها أو مقر . (١)

(١) راجع هذا النص فى : الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٢١٦ وفى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد للدكتور عاطف العراقى ص ٣٥٣-٣٥٦.

معنى هذا أن حقيقة المعجزة عند ابن رشد فى كونها آية وبرهان ودليل على النبوة وليس كدليل على الصلاح أو القدرة كما فى الكرامات أو الخوارق وهذا معنى قوله بأن الشريعة هى الأصل الأول الدال على حقيقة المعجزة ، وأن المعجزة الحقيقية هى التى يؤيدها العقل ويقر بها ، وأن التمييز بين المعجزات والخوارق لا يكون إلا على أساس النبوة والشرائع التى يأتى بها الرسل ، لأن هذه الرسالة أو المعجزة هى الدلالة القطعية على النبوة .

ولكى يدلل ابن رشد على أن المعجزات ليست كلها من خوارق العادات ، وأن المعجزة الحقيقية هى الرسالة المحمدية المقنعة للعقل والمتوافقة مع الشرائع ومصالح البشر والغير متعارضة مع قوانين المنطق والعلية يعقد المقارنة بين معتقد العوام ومعتقد الخواص للمعجزة كشريعة وخارقة فيقول : " وإذا سأل سائل عن الدليل على كون القرآن خارقاً ومعجزاً من نوع الخارق الذى يدل دلالة قطعية على صفة النبوة أى الخارق الذى فى فعل النبوة الذى يدل عليها كما يدل الإبراء على صفة الطب الذى هو فعل الطب . أجيب عليه بالقول بأن ذلك يوقف عليه من وجوه : أحدها أن يعلم أن الشرائع التى تضمنتها من العلم والعمل ليست مما يمكن أن يكتسب بتعلم أو بوحى ، وثانيها : ما تضمن من الإعلام بالغيوب ، وثالثها : من نظمه الذى هو خارج عن النظم الذى يكون بفكر ورويّة ، أعنى أن يعلم أنه من غير جنس البلغاء المتكلمين بلسان العرب سواء من تكلم منهم بذلك من قبل المنشأ عليه وهم العرب الأول .

وهكذا كان بيان ابن رشد لحقيقة المعجزة خير دليل على افتراء الفقهاء الذين وجهوا له تهمة إنكار المعجزات ، لا لشئ إلا لأنه رفض الفهم الخاطئ الذى شاع بين الجمهور والذى يوحد بين المعجزات والخوارق وبين المعجزات والكرامات ، كما رفض أن تكون المعجزات كلها على درجة واحدة أو أن تكون حسية ، وأخضع مبحث المعجزات للبحث العقلى وبراهين المنطق ودلائل الحكمة والشريعة ، ولم يسلم بالشروط التى وضعها المفسرون والفقهاء لوقوع المعجزة والتصديق بها .

فكان لزاماً على ابن رشد أن يثبت بالحجة والدليل مدى تميز المعجزة عن الخارقة ومدى تقدم المعجزة العقلية كالقرآن الكريم على غيرها من المعجزات

والخوارق ، ومدى ارتباط المعجزة بالنبوة والرسالة ومدى موافقتها لقوانين العقل والعليّة . ويثبت أن مفهوم المعجزة لا تظهر حقيقته إلا فى إطار مفهوم النبوة .

ولا شك أن رأى ابن رشد فى المعجزة كان أكثر صراحة وموضوعية من آراء سلفة من الفلاسفة أو المتكلمين ومثال ذلك ما ذهب إليه الفارابى وأورده فى فصوص الحكم وما أورده الما تريدى فى التوحيد والنبوة . فقد صرح الفارابى أن المعجزة يجب أن تكون من الأمور الموافقة للعقل لاتصالها بعالم الخلق الأكبر وهى لا تخرق العادة ولا قانون الطبيعة، وتفسير ذلك عند الفارابى أن النبوة مختصة فى روحها بقوة قدسية تذعن لها غزيرة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر فتأتى بالمعجزات ، وهذا الأمر وإن ظهر على أنه خارج عن الحيلة والعادات فهو لا يخرج على قوانين الطبيعة بل يتمشى معها ، فعالم الأفلاك هو مصدر هذه القوانين ، وما دامت القوة القدسية التى تختص بها روح النبى ﷺ تتصل بهذا العالم وترتبط بالعقل الفعال كان من الممكن ان تحصل أمور تبدو أنها على خلاف القوانين الطبيعية وما هى كذلك . (١)

وإذا كان رأى الفارابى يعضد رأى ابن رشد فى جانب موافقة المعجزة لقوانين الطبيعة فإن رأى الما تريدى يعضّد رأى ابن رشد فى جانب موافقة العقل بالمعجزة لأن العقل هو سبيل معرفة حجية الرسل وصدق الرسالات فالما تريدى يرى أن المعجزة هى آية صدق الأنبياء وهى تخرج على خلاف الأمر المعتاد بين الناس ، وأنها من فعل الله تعالى الذى يجريها على أيدى من أرسلهم .

ويؤكد الما تريدى أن دور العقل هام فى إدراك حقائق المعجزات لإن معرفة النبوات ليست إضطرارية بل إكتسابية ، والعقل هو سبيل حجة الرسل والتمييز بينها وبين تمويهات السحرة . (٢)

---

(١) الفارابى : فصوص الحكم – الثمرة المرضية ص ٧٢-٧٨ ، وفى الفارابى لسعيد زايد ط دار المعارف ١٩٦٢ . ص ٦٦-١٠٢ .

(٢) النبوة والأنبياء فى الفكر الإسلامى . د. على عبد الفتاح المغربى . مكتبة وهبة ط٢ ١٩٩٤ . ص ١٢٦-١٢٩ .

ثانياً : شروط المعجـزة عند ابن رشـد :

قبل استعراض الشروط التى حددها ابن رشد لوقوع المعجزة والتصديق بـها ، يمكن استعراض الشروط التى اتفق حولها الفقهاء ورجال الكلام وهى الشروط التـى انتقدها ابن رشد ولم يوافق عليها وهذه الشروط هى :

١ - أن تكون المعجزة مما لا يقدر عليه البشـر أى لا يقدر أحد مـن البشـر الإتيـان بمثلها .

٢ - أن تكون خارقة للعادة أى لما اعتاده الناس ، ومثالها المعجزة القولية كـالقرآن الكريم والفعلية كنبع المـاء وتحول العصا ثعباناً علـى يـد موسـى عليه السلام أو خروج ، الناقة من الصخرة زمن صالح عليه السلام أو تكون تركية مثل عجز النـار عن إحراق إبراهيم عليه السلام .

٣ - أن تكون على يد مدّعى النبوة .

٤ - أن تكون مقرونة بدعوة الرسالة والنبوة .

٥ - أن تكون موافقة للدعوى ومؤيدة لدعوى الرسول وخرج بذلك المخالف لـها ، كما إذا قال : إن آية صدقى إنفلاق البحر فإنفلق الجبل .

٦ - أن تكون دالة على صدقه لا دالة على كذبه كمسيلمة الكذاب الذى ادعى النبـوة فكانت أفعاله دالة على كذبه فجف ماء البـئر واعتـورت العيـن التـى أراد إصلاحها . فصارت دالة على كذبه ، ومثاله كذلك إذا قال آية صدقى نطق هذا الجماد فنطق أنه مفتر كذاب .

٧ - أن تتعذر معارضة النبى ﷺ ومعجزته وخرج بذلك السحر وأعمال الشعوذة .

٨ - أن تكون فى زمن التكليف أى زماننا الدنيوى .

٩ - ألا تكون فى زمن نقض العـادة كزمن طلوع الشمس من مغربها أو ما يقـع من الدجال آخر الزمان كأمره للسماء أن تمطـر فتمطـر والأرض أن تنبـت فتنبت . (١)

---

(١) راجع ما أورده القرطبى فى تفسيره والسالمى فى المشارق ص ٢١٧-٢١٨ والشيخ أحمد بن حمد الخليلى فى جواهر التفسير ٤٥-٤٨ .

ولقد حاول الشهرستانى فى كتابه نهاية الإقدام فى علم الكلام تحليل هذه الشروط مع التركيز على شروط ثلاث هى الإقتران أى إقتران المعجزة بدعوى الرسالة وأن تكون المعجزة ناقضة للعادة وأن تكون دالة على الصدق مع إضافته لبعض الشروط التى تشير إلى أهمية الجانب المعرفى أو الجانب الاعتقادى مثل شرط التمييز وعدم التكرار والإدراك والاعتراف .

ويمكن إجمال شروط المعجزة عند الشهرستانى فى :

١ - **إقتران الدعوة بالمعجزة** : أى أن الفعل بإختصاصه ببعض الجايزات يدل على إرادة الفاعل فإذا فعله عقب دعوته مقترناً بدعواه وهو صادق فى نفسه دل على قصده أى تصديقه وتخصيصه لرسالته . فهذا الاقتران محصور فى اشتراط الصدق لأنه كما يقول الشهرستانى : لو قدر ظهور مثل تلك المعجزة على يد كاذب لم يجز أن تقترن بدعواه النبوة بل تصرف عنه .. حتى لا ينقلب الدليل شبهة .

٢ - **الاستجابة والتخصيص** : أى تخصيص النبى بالاستجابة لدعواه ، ويكون تحقق المعجزة استجابة لطلب النبى ودعوته دليل على نبوته وتصديقه . فمن علم أن له عند الله دعوة مستجابة فدعا واستجيب له علم ضرورة أن المجيب أراد تخصيصه بتلك الإجابة كرامة له وإنعاماً عليه . فالله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار . (١) ويقول تعالى : وما كان لمؤمن ولا مؤمنه إذا قضى الله ورسوله أمر أن يكونا لهم الخيرة من أمرهم . (٢)

٣ - **التميز وعدم التكرار** : أى أن المعجزة لكى تكون كذلك لا يجب استمرارها أو تكرارها لأنه إذا استمرت خرجت عن الإعجاز والتحقت بالمعتاد .

٤ - **نقض العادة** : أى أن تكون المعجزة خارقة ناقضة للعادة ، لأن الصعود إلى السماء والمشى على الماء وإحياء الموتى وقلب العصا حية وأمثال ذلك نقض لعادة البشر ، فإذا اقترنت بتحدى الرسالة أو تصديق قول ما كانت آية وحجة على البشر وإن لم تكن نقضاً لعادة الملائكة والجن .

---

(١) القصص : ٦٨ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ .

٥ - **الإدراك** : وهو كشرط ضرورى عند الشهرستانى يشير إلى أن المعجزة فى حقيقتها يجب أن تكون ذات دلالة عقلية وهو اختصاصها بتحدى المدعى ، وأن تكون ذات دلالة من حيث القرينة ، ومن ثم فالإدراك الحقيقى لا يجعل للإنكار مكان ويزود الفرد بالخبرة والثقة والمعرفة . فالمعجزة إذا ظهرت لأهل الخبرة وحصل لهم العلم بذلك وهم جم غفير فأحرى أن لا يبقى شك لأهل الصناعات الأخرى .

٦ - **أن تكون المعجزة للهدى لا للضلال** : فإذا علم الرب أنه يرسل رسولاً يهتدى به قوم فهو كما يعلم أن ينصب دليلاً يستدل به قوم فلو أضلهم بعين ذلك الدليل وقع الأمر على خلاف المعلوم وذلك محال ، وكذلك إذا أخبر أنه يرسل رسولاً يهتدى به ثم أضل كل من بعث إليه تناقض الخبر وانقلب الصدق كذباً وذلك محال ، فإن الكذب لا يجوز على الله تعالى ، لأن الكذب إخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو يعلمه على ما هو به ، وكل من علم شيئاً كان له خبر عن معلومه والخبر من المعلوم خبر عن ما هو به فلا يجتمع فى العالم خبران متناقضان . وعلى ذلك , فإن إرسال رسول وإخلاؤه عن دليل الصدق وإظهار معجزة والقصد بها اضلال الخلق ، وإظهار خارق للعادة على يدى كاذب فى معارضة دعوى النبى ﷺ كل ذلك محال .

٧ - **الصدق** : أى تكون المعجزة دالة على صدق النبى ﷺ لا مكذبة له ، وأن يكون هذا الصدق حاصل من المشاهدة والعلم والمعرفة ، ودال على صدق المدعى ، فيقال هذا المتحدى إما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً ، وبطل أن يكون كاذباً لحصول الخارق للعادة على يديه وعلى وفق دعواه من غير أن يعارضه معارض ، واقتران هذه المعانى معاً يستعتب (يعقبه وينتج عنه) علماً ضرورياً بصدقه ... والنبى ﷺ أولاً يصبح صدقه باستماع دعوته والنظر فى معجزته ، ولا يتصور نبى قط إلا وأن تكون آية الصدق معه ، لأن حقيقة النبوة هى صدق القول مع ثبوت الآية .

ويستطرد الشهرستانى فى بيان أهمية الصدق أى صدق النبى ﷺ كشرط لوقوع المعجزة والحكم عليها والتصديق بها فيقول : وقد تكون الآيات عامة تدل

على صدق قوله فى جميع أقواله وأحواله ، وقد تكون من جنس الأقوال كآية مثل آية الكتاب ، وقد تكون من جنس الأفعال كآيات الإحياء وقلب العصا حية ، والجماد ، وبالجملة فإن دلالة الصدق لا تنفك عن حاله ومقاله طرفة عين وذلك هو المعنى بالعصمة الواجبة للأنبياء لأن العصمة لو ارتفعت بطلت الدلالة وتناقضت الدعوة خصوصاً فيما أرسلوا به إليهم وكلف الناس تصديقه فى أقواله وقت بعثه فى أفعاله (١)

وبعد عرض شروط المعجزة التى اتفق حولها الفقهاء وتلك الشروط التى حددها الشهرستانى يمكن تحديد الشروط التى وضعها ابن رشد وبيان مدى مخالفتها للشروط السابقة .

أما شروط المعجزة عند ابن رشد فهى :

١ - **الصحة والتصديق** : أى أن تكون المعجزة شاهدة على صحة النبوة وأن يكون التصديق بالنبوة قبل المعجزة لا بعدها .

ويبرهن ابن رشد على صحة هذا الشرط بالرسالة المحمدية وأن النبى ﷺ لم يقدم للقوم معجزات خارقة كخوارق العادات الحسية ليؤمنوا به أو يصدقوه ، ويدلل ابن رشد على أهمية هذا الشرط ويقول : ليس يصح تصديقنا للذى ادعى الرسالة عن الملك إلا متى علمنا أن تلك العلامة التى ظهرت عليه هى علامة الرسل للملك ، ولقائل أن يقول من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدى بعض الناس هى العلامات الخاصة بالرسل ، فإنه لا يخلو أن يدرك ذلك بالشرع أو بالعقل ، ومحال أن يدرك هذا بالشرع لأن الشرع لم يثبت بعد ، أى وقت ادعاء الرسالة والنبوة ، والعقل أيضاً ليس ممكنه أن يحكم أن هذه العلامة هى خاصة بالرسل إلا أن يكون قد أدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ولم تظهر هذه المعجزات على أيدى سواهم .. ، وهذا يعنى أن ثبوت الرسالة يتوقف على عنصرين هما النبوة والمعجزة ثم وجوب التصديق بالنبوة قبل الرسالة أى المعجزة

---

(١) عبد الكريم الشهرستانى - نهاية الإقدام فى علم الكلام ص ٤٣٤ - ٤٤٥ .

. ويبرهن ابن رشد على أهمية صحة الرسالة والتصديق بالنبوة فيقول : إن ثبوت الرسالة يبنى على مقدمتين : إحداهما : أن هذا المدعى الرسالة ظهرت على يديه المعجزة ، والثانية : إن كل من ظهرت على يديه معجزة فهو نبى ، فيتولد من ذلك بالضرورة أن هذا نبى، فأما المقدمة القائلة إن هذا المدعى الرسالة ظهرت عليه معجزة فلنا أن نقول إن هذه المقدمة تؤخذ من الحس بعد أن نسلم أن ها هنا أفعالاً تظهر على أيدى المخلوقين تقطع قطعاً إنها ليست تستفاد لا بصناعة غريبة من الصانع ولا بخاصة من الخواص وأن ما يظهر من ذلك ليس تخيلاً وليس من أمور السحر أو الشعوذات .

- وأما المقدمة القائلة : إن كل من ظهرت على يديه المعجزة فهو رسول ويجب أن نصدقه ، فإنما تصح بعد الإعتراف بوجود الرسل ، وبعد الإعتراف بأنها لم تظهر قط إلا على من صحت رسالته .

فلنا أن نقول : إن هذه المقدمة لا تصح إلا ممن يعترف بوجود الرسالة ووجود المعجزة ، لأن هذا طبيعة القول الخبري .(١)

وعند تأمل رأى ابن رشد فى مفهوم الصدق ودلالته كشرط لصحة المعجزة تظهر حقيقة الخلاف بين ابن رشد ومن سبقه من المتكلمين ، لأن المتكلمين رأوا أن المعجزات دالة بنفسها على صدقها وصدق من جرت على يديه ، وأن العقل لا ينكر المعجزات رغم كونها خوارق للعادات لان الخبر والتواتر والحس يؤكدونها اما ابن رشد فيعارض ذلك ويرى أن قوة الفعل العجيب الخارق للعوائد الذى يرى الجميع انه إلهى لا يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جهة ما يعتقد أن من ظهرت على يديه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب ، بل إنما يدل على أن هذا رسول إذا سلم أن الرسالة أمر موجود وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يد أحد من الفاضلين إلا على يد رسول ، ولهذا كان شرط المعجزة الصحة والتصديق أى الأيمان بالله والرسول قبل التصديق بالمعجزات وخوارق العادات لأن المعجزات وخاصة الحسية لا تدل على النبوة ، وهذا معنى قول ابن رشد أن

---

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة : تحقيق د. محمود قاسم ص ٢١٦ ، ٢٢٦ .

المعجز لا يدل على الرسالة لأن العقل لا يدرك الإرتباط والتلازم بين المعجز والرسالة إلا إذا كان هناك اعتراف وتصديق بأن المعجزة فعل من أفعال الرسالة كالإبراء الذى هو فعل من أفعال الطب فإنه من ظهر منه فعل الإبراء دل على وجود الطب وأن ذلك طبيب . (١)

ورغم هذا الاختلاف بين المتكلمين وابن رشد حول أسبقية التصديق ودلالته فإن الإجماع والاتفاق قائم على أن المعجزات سواء حسية أو عقلية هى أفعال وآيات إلهية دالة على صحة النبوة ، وأن التصديق بالنبوات والرسالات والمعجزات واجب شرعى لأنه " أى التصديق " إيمان بالله والكتب والرسل ، وتصديق بالقدرة الإلهية المطلقة كذلك .

وقد صور الماوردى فى أعلام النبوة إجماع رجال الفقه والكلام على أن المعجزات أفعال إلهية تدل على اصطفاء الله للأنبياء والرسل وإنها شاهدة على صحة النبوة ، لأن الله تعالى قدر لعباده أفعالاً كما قدر لهم أجساماً وآجالاً ، وانتهى إلى غاية أعجزهم عن تجاوزها وخرج عن عرفها من أفعال الله تعالى دونهم فكان بها ممتازاً وإليه تعالى منحازاً فيخص بطاعة إلهية كما اختص بأفعال لا هوتية ، فلذلك صارت الأفعال المعجزة شاهدة على صحة النبوة . (٢)

والغريب أنه رغم هذا الإجماع على ضرورة صحة الرسالة ونسبة المعجزة إلى النبى ﷺ ظهرت بعض الفرق التى أنكرت المعجزات والنبوات كالسمنية والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة والروندية والمجوسية وغيرها وهى الفرق التى تصدى لها علماء الكلام . (٣)

٢ - **الاتصال** : أى أن تكون المعجزة متصلة بالنبوة والرسالة فالنبوة عند ابن رشد ضرب من الاتصال بين النبى والله . وهذا الاتصال هو الذى يجعل من الممكن حدوث المعجزة وكذلك تصديقها .

---

(١) عباس محمود العقاد : ابن رشد ص ٦٦-٧٠ ، د/ عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ص ٣٥٠/٣٥٩ .

(٢) د/ على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء ص ١٣٥-١٣٨ .

(٣) سبق التعريف بهذه الفرق والجماعات .

والاتصال عند ابن رشد كشرط لحدوث المعجزة والتصديق بها له عدة معـــان منها التواصل والكمال والوحدة والتعقل والترابط والشمول .

فالإتصال الذى هو نوع من الكمال الروحى لا يتم إلا بقيام صلة ما بين العبـــد وربه ، ولولا هذه الصلة لما حدثت المعجزة . وهذا الاتصال هو نوع من التعقـــل ، أى السعى لإدراك الموجودات بأسبابها ، ويقوم بهذا الإتصال العقل الهيولانى القـادر على إدراك الصور بوصفه العقل المتوسط بين النفس الإنسانية والعقل الفعـــال ، إذ عن طريق هذا الاتصال يتلقى الإنســـان المعـــانى المجـــردة والصـــور المفارقـــة كالمعارف اللدنية أو وحى النبوة .

ويعلل ابن رشد أهمية هذا الاتصال أو التعقل بوصفة الوســـيلة الفعالـــة لنقـــل المدركات والمعارف ، لأن العقل المفارق المجرد لا يفعل فى المادة ولا ينفعل بـــها لأنه عقل عام وغير منقسم ، أما المعقولات فهى تختلف وتتميز من شـــخص إلـــى شخص حسب قدراته الإدراكية الخاصة ، وأن الإدراك يبدأ بعملية التخيل أى تخيـــل أفراد الكليات بتخيل صورها المحسوسة ورغم أهمية الإدراك والاتصال فى عمليـــة التصديق بالمعجزة ، يؤكد ابن رشد على أن هذا التفسير العلمى لعمليـــة الاتصـــال خاص بالفلاسفة ولا يجب إذاعته بين الجمهور .

والاتصال عند ابن رشد يعنى الوحدة والتعقل ويعنى تواصل الخـــبر والعقـــل فالخبر المتواتر هو المشاهد الذى يرويه قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم تواطؤهـــم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وصدقهم وتباين أماكنهم ، ومع هذا فالخبر وحـــده لا يكفى للتصديق بالمعجزات والتأكد من صحة محتوى الرسالة وجوهرها لأن الرسالة هى الآية وهى المعجزة الحقيقية وليس ما يرى من خوارق وهذا ما يؤكده ابن رشـــد ويوافقه الماوردى وبعض المتكلمين عليه والذى يقول : ولما كـــان طريـــق العلـــم بالمعجزات هو الخبر والعقل فإن العقل هو الذى يتوقف عليه صحة الخبر وصدقه ، وليس مجرد نقل الرواة ومشاهد اتهم الحسية ، وإن الأخبار التى تأتى عـــن طريـــق الرسل يلزم قبولها بضرورة العقل ، إذ لا خبر أصدق من خبرهم لأنه يـــأتى مـــن وحى السماء ومن الآيات الواضحة الدالة على صدقه . (١)

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ٩٩/٣٧/٣٦ .، د/ على عبد الفتاح المغربى . النبوة والأنبيـــاء ص ١٣٨/١٣٥ .

والاتصال عند ابن رشد يعنى أيضاً الترابط والشمول ، ويعنى وحدة الحقيقة وترابط الحكمة والشريعة وشمول المعجزات للجانب الحسى والعقلى ، ذلك لأن المعجز الحسى وحده لا يكفى ولأن المعجزة كآية لابد أن تشمل الرسالة والوحى والتكاليف والأخبار والحقائق والمعارف وأن تكون منهجاً لصلاح الإنسان وتقويمه وليس مجرد عملية مشاهدة لمعجز حسى كقلب العصا حية أو انفلاق البحر ، أو مجرد إنقاذ للنبى أو الرسول من أعدائه .

والاتصال كذلك يجب أن يؤكد الوحدة وترابط الحكمة والشريعة وعدم الفصل بينهما ، فالحكمة والشريعة عند ابن رشد حقيقتان فى حقيقة واحدة ، إذ الحكمة صاحبة الشريعة واختها الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة ، ليس هذا فقط بل إن حقائق الشرع والعلم والحكمة تضمهم الحقيقة الواحدة التى تختلف فى العبارة واللفظ ولا تختلف فى المعنى والجوهر . (١)

٣ - **الإتقان** : كشرط من شروط المعجزة يعنى النظام والاتساق الضرورى المحكم الذى يؤكد الإعجاز وقدرة الخالق ، والتصديق بالمعجزة وقبولها . والإتقان عند ابن رشد هو الذى يؤكد الحكمة من المعجزة . كما يؤكد العلاقة الضرورية بين الأسباب ومسبباتها ، وهذا الإتقان الذى نراه فى ظواهر وآيات الكون العام وراء نفى ابن رشد لجواز خرق العادات ، لأن فى خرق العادات اختلال النظام والإتقان الذى عليه الكون وما فيه من حكمة ، ومن ثم فإن الإتقان يؤكد الضرورة والحتمية ووجوبها ويتنافى فى الوقت نفسه مع القول بالجواز والإمكان الذى يقول به علماء الكلام ويقول به الأشعرية والغزالى والذين يؤكدون أن المعجزات هى خوارق العادات .

---

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٢١٣ / ٢١٥ .
وابن رشد : العقاد ٤٥/٣٢ - ابن رشد ماجد فخرى ص ١٠٨ .
وابن رشد : خليل شرف الدين ص ١٢٨/١٢٥ .

ولم يقتصر ابن رشد على أدلة العقل لإثبات الإتقان والضرورة والحتمية ، بل لجأ إلى البراهين النقلية وتفسيرها والتى تؤكد الوحدة والاتساق والترابط والإتقان مثل قوله تعالى : صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون . (١) وقوله تعالى : ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور (٢) وغيرها من الآيات التى يعلق ابن رشد عليها بقوله: من الضرورى أن يكون الكون كله على الترتيب والنظام الذى لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه ، فالإمتزاجات الموجودة فى الموجودات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة ويوجد ذلك دوماً ولا يختل . (٣)

من أجل ذلك كان الإتقان شرطاً ضرورياً للتصديق بالمعجزات التى تتوافق مع السببية والضرورة والحتمية لأن الإتقان هو دليل الحكمة والقدرة الإلهية والعلم والعناية .

وتفسير ابن رشد لأدلة النقل على الإتقان دال على ذلك فهو يقول : أى تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه الصفة ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة ، فمن زعم مثلاً أن الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة العالم فقد أبطل الحكمة (٤)

ولا شك أن هذا الشرط وتحليل ابن رشد له يبطل الاتهام الذى وجهه إليه فقهاء عصره بأنه ينكر المعجزات ، على اعتبار أن القول بالإتقان والضرورة والحتمية معارض للقول بالإمكان فى وقوع المعجزات بوصفها خوارق للعادات وخرق للضرورة والسببية .

---

(١) النمل : ٨٨ .

(٢) الملك : ٣ .

(٣) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٢٠٢ .

(٤) د/ عاطف العراقى : تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية . ص ١١٤-١١٥ وفى مناهج الأدلة لابن رشد ص ٢٠٢ .

٤ - **التوافق** : وهذا الشرط معناه ضرورة أن تكون المعجزة **متوافقة مع ما جاء به** الشرع ومع ما يقره العقل ، مع الإعتقاد الجازم **بأن إرادة الخالق لا** يعجزها أمر من الأمور .

وهذا يعنى انه من الضرورى أن تكون المعجزة متوافقة مع **قوانين العقل** والمنطق وليست خرقا لها ، ومن الضرورى أيضاً أن تكون المعجزة **متوافقة مع** ما جاء به الشرع ومع ما يدعو إليه الرسول صاحب المعجزة **ومؤيدة له فى نفس** الوقت .

من هنا كان شرط التوافق موضحاً لحقيقة المعجزة وحكم **الاعتقاد بها ومدى** الإرتباط بين التصديق بالمعجزات والإيمان بالرسل والرسالات وتصديقها . **وتفسير** ذلك عند ابن رشد أن الشريعة أوجبت النظر العقلى المؤدى إلى **المعرفة بالله** والكون وجميع الحقائق ، وأن النظر العقلى لا يؤدى إلى ما يخالف **الشرع** ، وأن المعجزات إذا كانت واجبة وليست ممكنة فهى لا تحتاج إلى أدلة وبراهين ، **أما إذا** كانت ممكنة أو جائزة فهى تعرف معرفة تقريبية ومن ثم فهى بحاجة **إلى أدلة** وبراهين . (١).

وهذا الوجوب العقلى والشرعى عند ابن رشد هو الذى يؤكد **شرط التوافق كما** يؤكد أن تكون المعجزة متوافقة مع العادة وليس خارقة لها .

ومن الملاحظ أن هذا الشرط كان موضع الخلاف بين ابن رشد **ومن سبقه من** المتكلمين وخاصة الأشعرية والغزالى ، وفى نفس الوقت كان عاملاً **من عوامل** التقارب فى الرأى بين المتكلمين المؤيدين للعقل كالباقلانى والما تريدى وغيره **مع** إتفاقهم حول حقيقة المعجزة وكيفية التصديق بها ، ومثال ذلك ، **أن ابن تيمية مثلاً** فى كتاب النبوات يتوافق مع ابن رشد فى كون المعجزة آية وبرهان ودليل فى ذاتها وإنها تعرف بالضرورة والاستدلال ، وأن المعجزات هى الآيات **الشاهدة على** صدق الأنبياء ورسالاتهم ، ومع هذا فإن ابن تيمية يشترط أن تكون **المعجزة خارقة** للعادة وغير متوافقة مع قوانين الضرورة والحتمية .

---

(١) خليل شرف الدين : ابن رشد ص ٨٤-٨٦ .

أما الباقلانى فيشترط أن تكون المعجزة خاصة بدار التكليف لأن ما يظهره الله تعالى فى الآخرة من الأمور الخارجة عن العادة ليس بمعجزة .

أما الما تريدى فيشترط التمييز بين المعجزات وغيرها من خوارق العادات كالسحر والكرامات ، ويرى أن المعجزة هى آية صدق الأنبياء وهى تخرج على خلاف الأمر المعتاد بين الناس ويجريها الله على أيدى من أرسلهم وهى من فعل الله تعالى .

ومع هذا يؤكد الما تريدى على أن دور العقل هام فى إدراك حقائق المعجزات لأن معرفة النبوات ليست اضطرارية بل اكتسابية والعقل هو سبيل معرفة حجة الرسل والتمييز بينها وبين تمويهات السحرة . (١)

وعند المقارنة بين شروط المعجزة التى وضعها ابن رشد والشروط التى وضعها سلفه من الفلاسفة أو من المتكلمين ندرك مدى أهمية وعبقرية ابن رشد وصدقه ومنهجيته فى بيان دور العقل وأهمية البرهان حتى فى مجال المعجزات وخوارق العادات .

فقد اتفق المتكلمون على الشروط العامة الى يجب توافرها فى المعجزة والتى تميزها عن غيرها من خوارق العادت وهى :

١ - أن يكون فاعل المعجزات هو الله تعالى ، لأنه لا مؤثر ولا موجد ولا مكون إلا الله ، وأنه مادام فاعلها هو الله فيجب أن تكون واحدة ومتميزة ولا تتكرر ولا مثيل لها ومما لا يقدر عليه البشر ، ولا يستطيع بشر الإتيان بمثلها ولو استعان بسحر أو جان ، لأن كل ما هو فى مقدور البشر لا يسمى معجزة ، وبالتالى فإن المعجزة الخارقة للعادة هى الدليل على صدق الرسول وأنها ليست من عنده .

٢ - أن تكون المعجزة خارقة للعادة ، أى مخالفة لعادات البشر ومعلوماتهم ومشاهداتهم ، ومن ثم وجب أن تكون المعجزة متميزة وغير مألوفة وغير متوافقة مع قوانينهم أو قوانين الطبيعة المعروفة .

---

(١) د/ على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء فى الفكر الإسلامى ص ١٢٦/١٢٩ .

ومثال ذلك عندهم أنه إذا إدعى صاحب المعجزة أن آية صدقه أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب فى المغرب فلا تكون هذه معجزة ولا دليلاً على صدقه ، لأن ذلك معتاد ومألوف وليس من إعجازه أو صناعته ولأن المعجزة فى حقيقتها شئ لم تجربه العادة .

٣ - أن تكون الدعوة مصاحبة ومقترنة بالدعوة والرسالة وصاحبها ، وخاصة به وحده وبدعوته ، لأنه إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد رجل آخر غيره لم يدع إلى رسالة أو يدعى نبوة فقد يكون الأمر كرامة له أو مجرد علامة على صلاحه وتقواه وقربه من الله ، وإن كان هذا الرجل من عامة الناس فمعونة له لإنقاذه من موقف ما ولا تسمى عندئذ بمعجزة .

٤ - أن تكون المعجزة دليلاً على صدقه وليست دليلاً على كذبه ، لأن شرط تصديق الدعوة أو المعجزة أن تكون المعجزة مؤيدة لدعوة النبى ودالة على صدقه لا مكذبة له ومثال ذلك عندهم ما روى عن مسيلمة الكذاب حين ادعى النبوة وحاول تقليد النبى محمداً ﷺ فحاول شفاء عين أحد المرضى فتفل فى عينه فاعورت وفسدت فأدرك الناس بالفعل أن مسيلمة ليس بنبى وأطلقوا عليه اسم النبى الكاذب أو مسيلمة الكذاب .

٥ - أن تكون المعجزة من المستحيل الذى لا يتكرر أو يمكن تقليده ومن ثم وجب أن تكون المعجزة مقرونة بالتحدى ليعجز البشر فرادى أو جماعات عن معارضتها أو الإتيان بمثلها ، ولهذا كانت المعجزة واجبة التصديق لأنها الدليل الأكيد على صدق النبى وأن مرسله هو الحق سبحانه ، وأن من المستحيل أن يأتى بمثلها بشر .

ودليل ذلك عندهم آيات الكتاب ودعوة النبى للعرب أن يأتوا بمثله أو أجزاء منه أو بما يشابهه فعجزوا عن ذلك ، ونزل فى هذا قوله تعالى " فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين " . (١) : " وقوله تعالى : " فأتوا بعشر سور مثله مفتريات " . (٢) وقوله تعالى : " قل فأتوا بسورة مثله وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين" (٣) .

---

(١) الطور : ٣٤ .

(٢) هود : ١٣.

(٣) يونس ٣٨ .

٦ - أن تكون المعجـزة مناسبة لظروف الزمان والمكان والعصر وصـاحب الدعـوة أيضاً ، وهذا يعنى ضرورة أن تكون المعجزة من جنس مـا بـرع فيـه القـوم ويحسنونه لكى يكون التحدى قوياً ومؤثراً ويكون خرق المعجزة للعادات أقوى فـى الدلالة على صدق النبى ودعوته ومثال ذلك عندهم ان معجزة ابراهيم عليه السـلام جاءت فى قوم يعبدون النار ويقدسونها ويقدرون قدرتها على الإحـراق ، فتـأتى معجزة إبراهيم فى عجز النار على إحراقه .

وكذلك معجزة موسى عليه السلام جاءت فى عصر تقدم السحر وتأتى المعجزة فى عجز السحر واثبات عجز السحرة وإبطال سحرهم .

وكذلك معجزة عيسى عليه السلام جاءت فى عصر تقدم الطب وعلاج الأمراض ، فتأتى معجزته من نفس علمهم واهتمامهم فتفوقهم قوة لا مثيل لها فيشفى عيسى أمراضـاً لا تشفى بل ويحي أمامهم الموتى بإذن الله . وكذلك معجزة محمدﷺ تأتى فى عصر تقدم اللغة والفصاحة والبيان لتثبت عجز العرب وعدم قدرتهم فى أن يأتوا بمثل القرآن وليقفوا حائرين صاغرين أمام إعجاز القرآن البلاغى والعلمى فى ضبطه ونظمـه وبيانـه وشموله للعلوم والحكم والمعجزات .(١)

---

(١) راجع تفاصيل المعجزات وشروطها فى كتب النبوة والعقائد وعلم الكلام منها الباقلانى فـى إعجاز القرآن ، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والخليلى فى جواهـر التفسـير ج١ ص ٤٥-٤٨ . و عبد الرحمن الميدانى فى العقيدة الإسـلامية وأسسـها ص ٣٣٩ . والسالمى فى مشارق أنوار العقول ج٢ ص ١١-١٢ . و جعفر السبحانى فى مفاهيم القرآن ج٤ دار الأضواء بيروت ص ٩٥-١٥٣ .

ثالثاً : المعجز الحسى والمعجز العقلى عند ابن رشد :

كان تمييز ابن رشد بين المعجز الحسى والمعجز العقلى وتقديم العقلى على الحسى سبباً فى العديد من التساؤلات والشكوك التى أثارها الفقهاء وعلماء الكلام فى عصره ، حتى أنهم وجهوا إليه تهمة الكفر والإلحاد على أساس أنه ينكر المعجزات .

وهذا يفسر القول بأن نكبة ابن رشد وإحراق كتبه الفلسفية واتهامه بالكفر يرجع إلى موقفه من مسألة المعجزات ورده على الأشعرية والغزالى فى هذه المسألة وتقديمه للمعجز العقلى على المعجز الحسى .

والمعجز الحسى على العموم هو جملة الأفعال التى أجراها الله على يد من اصطفى من أنبيائه لتكون دليلاً على نبوتهم وانقاذاً لهم من أعدائهم ، وهى أمور تفوق قدرة البشر وتخرج عن المعهود والمألوف ، وحين يشاهدها الخلق يتعجبون ولا يملكون سوى التصديق بها والإيمان بحكمة الإله وقدرته ، ومثالها إنقاذ إبراهيم عليه السلام من الإحراق ، وفلق البحر وقلب العصا حية لموسى وإنقاذه من فرعون ، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام وإنقاذه من شرور قومه .

والمعجز الحسى عند ابن رشد بهذا الوصف هو مجرد علامة خارجية أو حدث مرئى قد يؤكد وجود الرسالة أو أن صاحب المعجزة هو النبى المرسل إليهم إلا أنه ليس دليلاً كافياً على صحة رسالته أو التصديق بها ، وقد يرى عامة الناس فى المعجزة دليلاً إلا أن الدليل الوحيد الذى يثبت صدق رسالة من الرسالات هو الشرائع والأحكام التى تتضمنها تلك الرسالات والحقائق التى تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم .

وعلى ذلك فالمعجزة يجب أن تكون هى الشريعة نفسها ، وليس ما يظهر من خوارق ، ومثال المعجزة العقلية هو الشريعة التى صدع بها النبى محمد ﷺ ، ولأن النظر العقلى أمر واجب بالشرع ، وبراهين العقل يجب أن تتوافق مع روح الشرع وتستمد فى أكثرها من آيات القرآن بعد تأويلها التأويل العقلى السليم ، من أجل ذلك كان المعجز العقلى أهم من المعجز الحسى ومتقدم عليه .

وهذا هو ما ذهب إليه ابن رشد وسبقه إليه رجال الاعتزال والأشاعرة وقد حاول ابن رشد تبرير تميز المعجزة المحمدية عن باقى المعجزات وذلك بإثبات تميز المعجز العقلى الجوانى عن المعجز الحسى البرانى فقال : إن دلالة القرآن على نبوة الرسول ﷺ ليست هى مثل دلالة انقلاب العصا حية على نبوة موسى ، ولا إحياء الموتى وإبراء الأكمه الأبرص على نبوّة عيسى ، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء وهى مقنعة عند الجمهور فليست تدل دلالة قطعية إذا انفردت ، أما القرآن فدلالته على هذه الصفة هى مثل دلالة الإبراء على الطب ، فالنوع الأول هو هذا النوع من المعجزات التى تدل دلالة قطعية يقينية على وجود الرسل وشريعتهم ، وقد استمدت صفة القطع واليقين من كونها مناسبة للصفة التى من أجلها وصف إنسان ما بأنه رسول أو نبى .

أما النوع الثانى من المعجزات ويقصد به المعجز الحسى: فلا يعد يقيناً كالنوع الأول لأنه لا يدل على الصفة التى من أجلها وصف النبى أو الرسول بانه كذلك ، فلابد أن تدل الصفة تماماً على الموصوف ، فلفظ الرسول يجب أن يكون مطابقاً للصفات الواجب توافرها فى الرسول شأنه فى ذلك شأن لفظ الطبيب ، ومثال ذلك : لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما : الدليل على أنى طبيب أنى أسير على الماء ، وقال الآخر : الدليل على أنى طبيب أنى أبرئ المرضى ، فمشى ذلك على الماء ، وأبرأ هذا المرض لكان تصديقنا بوجود الطبيب للذى أبرأ المرض ببرهان وتصديقنا بوجود الطب للذى مشى على الماء مقنعاً من طريق الأولى والأحرى ، ووجه الظن للذى يعرض على الجمهور ذلك أن من قدر على المشى على الماء الذى ليس من وضع البشر فهو أولى أن يقدر على الإبراء الذى هو من صنع البشر . (١)

وابن رشد يطلق على النوع الأول من المعجزات المعجز الجوانى أى العقلى ، ويطلق على النوع الثانى من المعجزات المعجز البرانى أى الحسى ، مشيراً إلى أن الثانى لا يدل على حقيقة النبوة أو الرسالة بقدر دلالته على القدرة الإلهية المطلقة ،

---

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٣٢١ . وفى النزعة العقلية لأبن رشد : د/ عاطف العراقى ص ٣٥٨ .

فى حين أن المعجز العقلى بوصفه الرسالة هو الدال على النبـــوة ويســتحق اســم المعجزة والتقديم .

ومن الملاحظ أن هذا الرأى الذى ذهب إليه ابن رشد له من يؤيده ســواء مــن المتكلمين القدامى أمثال الرازى والباقلانى ومن المفكرين المعاصرين أمثال الإمــام محمد عبده والدكتور عاطف العراقى والدكتور على المغربى وغــيرهم . فــالفخر الرازى فى النبوات يؤكد على أن القرآن هو المعجز الأكمل والأتم بالنسبة للنبى ﷺ وأنها تفوق فى قوتها ودلالتها أى نوع آخر من المعجزات الخارقة للطبيعة ودليــل ذلك عنده أن القرآن ينتقل بالإنسان من مرحلة الإيمان عن طريق المعجزة الحســية وحدها الخارقة للطبيعة التى تبهر الأنظار إلى طريق الإيمان القائم علــى التفكــير والعلم والبرهان وأن الدليل على الصدق هو اتساق القانون الطبيعــى لا أن يكــون خرق ذلك القانون ، والانتقال بالإنسان من بناء إيمانه على المعجزات الحسية إلــى بنائه على المعجزات العقلية وأن القرآن يدلنا : أنه لو كــانت المعجــزات الخارقــة للعادة كافية ومقنعة لما كذب بها الأولون بعد أن ألحوا فى طلبها وأجيبوا إليــها (١) وهذا نفس ما ذهب إليه ابن رشد . ونفس الموقف يؤيده الباقلانى فى إعجاز القــرآن عندما يقدم القرآن كمعجزة على باقى المعجزات ، ويرجع سبب ذلك إلى ما يتصــف به القرآن من صفات العمومية والثبات والاستمرار والبقاء ويقول : فهو وإن كان قد تأيد بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة وأحوال خاصــة ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً ، إلا أنــه نقل عن الجمع العظيم وأنهم شاهدوه ، فلو كان الأمــر علــى خــلاف مــا حكــى لأنكروه ، أى أن دليل بعض تلك المعجزات التواتر والبعض الآخر هــو الأحــاد ، فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ولــزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد وإن كان قــد يعلــم بعجز أهل العصر الاول عن الإيتان بمثله وجه دلالته فيغنى ذلك عن نظــر محــدد فى عجز أهل هذا العصر عن الإيتان بمثله عن النظر فى حال العصر الأول . (٢)

---

(١) الفخر الرازى : النبوات وما يتعلق بها ص ٧٩،١٦٨،١٧٧ ، د/ على عبد الفتاح المغربــى : النبوة والأنبياء ص ١٣٩-١٤٢ .

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٨ ، والنبوة والأنبياء د. المغربى ص ١٤٨/١٤٩ .

ومن المعاصرين يأتى الإمام محمد عبده والدكتور عاطف العراقى فى مقدمة المؤيدين لهذا الرأى الذى ذهب إليه ابن رشد من أن المعجزة هى الرسالة والوحى وهى الدليل الأكيد على النبوة وصدق الرسالة ، وبوصفها الأمر الخارق الذى تحدى به النبى قومه ليؤمنوا به ويصدقوه ، وعلى ذلك وجب تقديم المعجز العقلى على المعجز الحسى ، ويؤكد هذا الدكتور عاطف العراقى فيقول : إن ابن رشد قد فهم المعجزة فهماً لا يتنافى ونزعته العقلية ، فالمعجزات عنده ليست إلا عجائب ناشئة عن كمال الخواص الإنسانية عند النبى ﷺ وليست معجزات بمعنى الكلمة أى تتجاوز العقل الإنسانى أو أنها خارقة للعادة . ويؤكد الدكتور عاطف أن رأى ابن رشد هذا لا يعنى نفيه للمعجزات كلية ، بل إن تفرقته بين المعجز الجوانى والمعجز البرانى قامت على أساس رأيه فى التوفيق بين العقل والشرع ، وإذا كان المعجز الجوانى مناسباً لأهل البرهان فإن المعجز البرانى قد أعد للذين يسلكون مسلك الإقناع .

ويرى الدكتور عاطف العراقي أن ابن رشد عندما أراد تحديد نوع المعجزة التى يعتمد عليها الشرع نادى بالمعجز الجوانى لكون معجزة النبى هى القرآن ، وإذا كانت هنا لك حوادث خارقة للعادة فهذه الحوادث أشياء ثانوية تمثل المعجز البرانى الذى ضرب أساساً لأهل الإقناع ، ومن ثم فإن كل ما يعوذنا هو المعجز الجوانى المناسب . أما إذا ذهبنا إلى القول بأن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تقيد قدرة وضعتها وبهذا يكون المعجز البرانى ممكناً فإن هذا لا يؤدى إلى دراسة الطبيعة ووضع قوانين ثابتة شاملة لها ، وليست العبرة بالقول بأن المعجز المناسب دليل دقيق ميسر حتى على الخاصة للاقتناع به وإقناع الغير لأنه يقوم على تقدير صلاح الشريعة وموافقتها لكمال الإنسان وسعادته ، وهذا التقدير لا يتجاوز حد الاقتناع الأدبى ، أما المعجز البرانى فالتثبت من وقوعه أسهل ولكن العبرة بما يتفق وأدلة العقول ومنطق الوجود معاً . (١)

وذلك فى إشارة إلى أن ابن رشد قد ميز بين المعجز الحسى والمعجز العقلى على أساس مدى الحاجة إلى المعجزة ومقدار الصدق ودليل البرهان والتأكيد على

---

(١) د/ عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ص ٣٥٨-٣٥٩ .

أن المعجزة الحقيقية يجب أن تكون هى الرسالة والوحى لتكون دليلاً أكيداً على النبوة وصدق الرسالة .

ويؤيد الدكتور على المغربى فى كتابه النبوة والأنبياء ما ذهب إليه ابن رشد من تمييز وتقديم للمعجز العقلى على المعجز الحسى ويعقد مقارنة بينهما ليبين أفضلية المعجز العقلى المتمثل فى القرآن الكريم على باقى الخوارق والمعجزات ويؤكد أن المعجزات الحسية التى جاءت على أيدى الأنبياء لا تكون وحدها هى الطريق الوحيد إلى إثبات نبوة الأنبياء بل هى تمثل أحد هذه الطرق بل هى أضعف دلالة وقوة من المعجزات العقلية . ويبرر الدكتور المغربى أسبقية المعجز العقلى وأفضليته بقوله : إن المعجزات الحسية معجزات وقتية وبالتالى معرضة للنسيان أما المعجزات العقلية فهى دائمة التأثير والمفعول وهى باقية فى كل زمان ومكان ، لأنها ليست فعلاً حسياً خارق للعادة وما ألفه الناس . ويرى أيضاً : أن الحكم على المعجزات الحسية من حيث القوة والضعف لا يعنى الشك فيها كحدث وقع بالفعل واقترن بدعوى الأنبياء وكان دليلاً على صدقهم ، ومع هذا فهى لا تدخل فى مضمون الدعوة ذاتها لأنها لا تحتوى على أية تعاليم بل هى مقدمة ضرورية يسلم بها القوم للنبى ويأخذون عنه مضمون الرسالة .

ولأنها كذلك فإن التصديق بها لا يدخل ضمن التصديق بالرسالة وما فيها من أمور تكليفية تعبدية ، وأن التصديق بها وحدها ليس كافياً للإيمان بما جاء به الرسول كما أن إنكارها لا يعنى بالضرورة إنكار ما جاء به الرسول ، وهذا هو موقف فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام الذين تناولوا مسألة المعجزات وخوارق العادات وقارنوا بين معجزات محمد ﷺ ومعجزات باقى الأنبياء ، وحديثهم عن المعجزات العقلية ، وهو نفس ما ذهب إليه ابن رشد فى هذه المسألة . (١)

وعند المقارنة بين رأى ابن رشد ورأى المعاصرين فى تفسير المعجز الحسى والعقلى يأتى رأى الإمام محمد عبده فى مقدمة الآراء التى تقترب إلى حد بعيد من

---

(١) د/ على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء ص ١٤٤- ١٤٦ .

رأى ابن رشد ، من حيث تمييز الإمام محمد عبده بين نوعين من المعجزات والإعلاء من المعجز العقلى والتأكيد على أن العقل هو وسيلة الإيمان الصحيح .

ولأن مسألة المعجزات والتصديق بالخوارق تثار أمام العقل فى كل عصر لارتباطها بقضايا الوعى والدين والعلم ، ومدى تأثر العوام وتصديقهم بمعارف الحس ، والانحراف عن أصول الدين والاعتقاد الساذج بالخوارق والأسطورة ، وإمكان الجمع بين المعجزات وباقى الخوارق وأعمال السحر وكرامات الأولياء .

من أجل ذلك كان اهتمام رجال الفكر فى العصر الحديث بمسألة المعجزات والخوارق وخاصة مسألة التمييز بين المعجزات الحسية والمعجزات العقلية كما فعل ابن رشد من قبل وكما فعل الإمام محمد عبده فى عصرنا .

فقد نبه الإمام إلى خطورة القول باعتبار المعجزات واستمرارها وإنها شئ ممكن الوقوع فى كل زمان ومكان ، كما نبه من خطورة انتظارها وتوقعها وتصديقها دون حاجة أو دليل ، وأكد فى رسالة التوحيد على أن المعجزة ليست من المستحيل العقلى لأن السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد فى أمر المريض حين يمتنع عن الأكل مدة ، فإذا لم يأكل وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف (١) .

وعن القرآن كمعجزة عقلية يؤكد الإمام محمد عبده على أن معجزة النبى ﷺ تختلف عن سائر المعجزات وتتميز بعدة مميزات منها :

١ - أنها تقوم على حال النبى نفسه والقرآن المنزل عليه ودعوة العقل لإدراك وجوه الإعجاز .

٢ - أن القرآن كمعجزة قد نهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى نزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه .

---

(١) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ط مكتبة القاهرة ١٩٦٠ ص ١٧ .

٣ - أن القرآن كمعجز عقلى لم يقصر الاستدلال على نبوة النبى ﷺ بما عهد من الاستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل فى حال النبى ﷺ مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز العلماء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة فيه ، وقص علينا عن صفات الله ما أذن لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

٤ - أن القرآن معجزة عقلية تخاطب العقل وتحفزه على النظر والتأمل . ودليل ذلك عند محمد عبده : أن النظر العقلى هو الأصل الذى بنى عليه الإسلام ، وان العقل هو وسيلة الإيمان الصحيح ، وأن منهج القرآن فى إثبات الإيمان هو العقل والفكر والبرهان ، وأن القرآن كمعجزة عقلية لا يدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية . (١) فتلك براهين وعلامات تؤكد تميز القرآن كمعجزة عن باقى الخوارق الحسية الأخرى كما نؤكد تردد أراء ابن رشد فى عصرنا وتأثر الإمام محمد عبده وغيره بآراء ابن رشد وخاصة فى المعجزات .

كما تؤكد ضرورة بيان حقائق المعجزات لكشف ما يردده الجهال من خرافات وخلطهم بين المعجزة والخارقة وبين المعجزات والكرامات والحيل .

---

(١) راجع رأى الإمام محمد عبده فى المعجزات والخوارق فى رسالة التوحيد ص ٧،٨،١٧ والإسلام والنصرانية ص ٤٧،٤٨

والتفكير فريضة إنسانية / عباس محمود العقاد . المجموعة الكاملة ص ٢٦٣ .